الشعر التونسي الحديث

بقلم محمد صالح الجابري

ابو القاسم الشابي

يعاني الشعر التونسي حالياً من سبات يرافقه منذ بضع سنوات هي بالتحديد الفترة من سنة ١٩٦٨ وحتى مفتتح هذا العام الجديد ١٩٧٢ . وليست تلك القصائد القليلة التي تمزق هذا الصمت من آن لاخر دليلا البتة على التنبيه الى مكامن الشعراء الذين آثروا الاخلاد الى متاعب الحياة العامه ، وتيار الزحام اليومي .

فالتفسير الممكن لمقاطعةهذاالسكون الذي طال امتداده هو ان تلك الاشارات بلوح منذره بعض الاصوات الجديده التي عششت في ظلال هذا الصمت ، ورفعت عقيرتها بالدعوى الى شعـــر « تجريبي » ، واعلنت دونما تهيب أو حشية ، أنتهاء جيل من الشعراء الصمت به كل ما يشين ويضيف . وأندفعت الى المواجهه بديلا . ثم أخذت فـــي بياناتها الشعريه شرح دعواها وتبرر ظهورها .

وأثارت المواجهة الباردة التي وقفها منهم جيل الشعراء المعروفين في نفوس هذا النفر من الشباب حمية واندفاعا .. فانحرفوا عـــن دورهم في أن يملأوا الفراغ المتاح الى مباهات المداورة واللمز والتجريح مما جعل المثقفين والقراء ، على حد سواء ، ينقبلون هذه القصائد النثرية (التجريبيه) بتحفظ وسخرية . سيما أن الشعر العربي اقترن في النفوس ، منذ الابد ، بظاهرة التنغيم التي جافاها هؤلاء لافتقارهم الى القدرة على موسقة قصائدهم ، تلك الموسقة التي هي منة المنن على الموهوبين من الشعراء .

من خلال هذه الافاق التي نظهر ـ لحد الان ـ عجز هذا الرهط من الداعين الى القصيدة النثريه من ضوابط السعر المنغوم (نجـــد نظائر لهم في شعر أنسي الحاج (لبنان) ومحمد الماغوط (سوريـــا) وفاضل العزاوي (العراق) ..) .. ونظهر غلوهم في اعتداد انفسهم اهمية لا تناسب ما يطرحون من محاولات ، مع بيقنهم من استحالـــة الاستجابة الجماهيرية لمثل هذا اللون من النثر الساعري .

ومن خلال ما يمكن ان ينعت بتراجع وخيبه الجيل الذي ظهر في مدى الستينات ، وصمته الصمت المبكر الذي لا ينبيء الا عن ضمـــور تلك المحاولات التي قدمها في بدء انفتاحه على القراء ، وانسحابـــه مدحورا الى الموقعة ، والافلات من حتمية مواجهة الاجيال .

قلت : من خلال ذلك كله حاولت ان ارسم صورة حاضر الشعـــر التونسي ، وسأحاول في خطوط عامة الارتداد الى ماضي الحركـــة الشعرية في تونس ، طيلة عشرين سنة ، اي منذ منتصف الخمسينيات وحتى اواخر العقد الماضي ، وهي السنوات التي تعرف بسنـــوات التحرر السياسي ، منذ حصلت تونس على استقلالها في سنة ١٩٥٦ .

وهو تاريخ يحتل في تونس شانا عظيما .. انعكس على كل ما فـــي حياتنا اليوميه ، وامتد ليسكب في ارواح الشعراء صبوات المجـــد والظفر .. فمشوا في مواكب النصر ، بينما كانت ملابين الافواه تملأ عنان السماء ، صخبا ونسوة ، وحداء ..

انما قصه الشعر في ربوع هذا القطر العربي لم تبدأ في هـــذا التاريخ القريب جدا ، فمنذ رسخت الحضارة العربية ، لم تـــن الاجيال من الشعراء متعاقبه . ما آب جيل الا ترك جذوة الحـــرف العربي لها معالم ، وأمن على ارث الاجداد والاباء .. ركب يتابعه ركب .. فلم تفتر هذه التربة مبدعة خالقة ، معطاء .. كان آخـــر هؤلاء الافذاذ ابو القاسم الشابي . فالقائمة لو بوغلنا قليلا الى وراء ستكون اطول مما يقتضي المقام .

ولاسباب اصبحت واضحة ، عرف المشرق العربي الشابـــي ، وأعجب به . وظل الشابي الشاعر الوحيد الاكثر شهرة في المشرق من بين شعراء تونس الى زمن بعيد وحتى الان . ولذلك فالفترة المعاصرة هي التي تبدو في حاجة الى تقديم . اذ على الرغم من توفر وسائط الابلاغ المعاصرة حتى لتكاد حدود هذا العالم تصبح واحدة (ما يقع على طرف منه ينتقل في ومضة عين الى حدوده الاخرى) فان أزمة عـــدم اصغاء او ما يسمى بحوار الصم يسود ادباء العالم العربي ، في وقت، لو وقفت فيه ـ وأنا مبالغ في ذلك بلا شك ـ على شواطىء تونـــس لتبدى لك لبنان : شواطىء ، وشوارع ، وعمارات ، ولصافحتـــك واجهات دور نشره التي تأبى الا ان تضرب كشحا عن المساهمة في نشر الادب المغربي وهي في ذلك ملومة معاتبة .

ـ ١ ـ

امتد « عصر الشابي » حتى بعد وفاته في سنة ١٩٣٤ . فظلال شاعريته ، وقد استفزمها الكثيرون من معاصريه من بني جلدتـــه ، اخذت في الاستطالة بانفسهم بعد موته ، بعد ان يئس اولئك الذيـــن ابوا عليه مكانته عودته من تحت سجف الثرى . وقد لا يمر ـ حتـــى الان ـ موسم من المواسم لا تظهر فيه دراسة من الدراسات الادبية حول الشابي . وشعره ما يزال مثار اهتمام الادباء من كل اقطار البـــلاد العربية ، وحتى الشباب نجدهم لا يتنكرون للشابي عندما ينظر اليه من اطار الفترة العصيبة الجديدة التي عاشها . ولكن ميزة هذه الدراسات الاخيرة انها تخطت الاندفاعات العاطفية الى اخضاع شعر الشابي الى نظرة تقييمية نقدية وضعته في الموضع الملائم من الحركه الشعرية فـــي تونس . فاختفت ظلال الشابي التي هيمنت زمنا على الحركة الشعرية وتسببت في غبن شعراء عديدين حق الظهور لتتاح لبعضهم فرص خلق

اتصال بينهم وبين القراء .

جنت الهالة التي احيط بها شعر الشابي على شعراء ما بلغوا شاوه .. ولكنهم ساهموا بأشعارهم في تطوير حركة الشعر على امتداد سنوات الاربعين قبيل الحرب الثانية وبعدها بقليل .. وربما وجدوا انفسهم في ظرف من الظروف الوجه السلبي لحركة الشعر ، حين امتص شعر الشابي كل مظاهر الاحتفاء والاجلال ، فعكس ذلك الامتعاض والمرارة في نفوسهم ، فتولى منهم من تولى ، والقليل منهم من تحامل وصابر . يذكر في هذا الصدد : سعيد أبو بكر ، محمود بورقيبة ، عبد الرزاق كرباكه ، ثم الطاهر القصار والصادق مازيغ ، فمحمد زيد .

واتسم مصطفى خريف بحاسة المحتكين أن لا امل في كتابة شعر كلما قرىء للشابي قصيد الى جانبه زاد من الصورة المشرقة لشعر الشابي ، فاستبدل بضاعته كشاعر وأخذ يكتب من المقالات الادبية ، وبضع اقاصيص . ولم يبرز مصطفى خريف كشاعر الا بعد الحرب الثانيه حين كان جل أولائك الشعراء قد اصطفاهم المولى الى جواره .

وقد ساعد خريف على مقاومة هذا الاندحار انتاجه المنتظم في تباعد ، ومعاصرته لاجيال جديده من الشباب استطاع ان يجعل من نفسه بينها محور اهتمام لما حف بسيرة حياته من طرافه ، ولثقافته العربيه الراسخه التي أهلته لان يكون مرجعا لكل من يلوذ به . ولقد كان الجيل الذي ظهر ابان فترة التحرر السياسي يرى مصطفى خريف كاما هو سبح جاء من التاريخ ليحدثه عن صداقته بالشابي وبمحمود بيرم التونسي (الذي اقام بتونس من سنة ١٩٣٢ حتى سنه ١٩٣٧) وبعلي الدعاجي ، ومحمد العريبي وكرباكة ، وجل الادباء الذين اخهوا مبكرا تاركين بصمات ابداعهم تتير الحسرة والشجن والكمد .

ان كل مؤرخ لحركة الشعر التونسي المعاصر يجد مصطفى خريف نقطة بدايته . فهو صلة الرحم بين الجيل الغابر .. والجيل القائم . وهو نمط الشاعر التقليدي المتشبث بمعطيات القصيدة القديمة التي وجدت في شعر من تلاه ، من حاول تخليصها بحسبان من قيود الوزن المطلق . ثم وافى بعدهم الجيل الذي حررها مماشاة للاساليب المستجدة التي ادخلت في بنية القصيدة العربية .. فلا مناص ـ اذن من ان يكون هذا الشاعر المخضرم فاتحة الشعر التونسي المعاصر . ولطالما أثبت في حياته وفي سيرته انه يعيد لحمة الاجيال الادبية .. وانه شاهد من الماضي يؤمن على مكتسباته في الاجيال الحاضرة .

ـ ٢ ـ

وبما أننا لا نستطيع في عجالة كهذه افراد كل شاعر بما يستحق ـ ان له .. وان عليه ـ فان علينا القاء ما امكن من الاضواء على أهم التيارات الشعرية ، وعلى اهتمامات الشعراء ، والقضايا التي ساهموا في معالجتها ، ومدى توافق ذلك مع مطامح شعبهم ، وبوفه وأمانيه .

فمما لا سبيل الى نكرانه ان الشعر أوان مرحلة الصراع السياسي بين المستعمر وابناء الوطن أفلح في شحذ النفوس بمزيد من النورة ، وألهب روح الوطنيه حماسا فائضا . ولا يمكن ان يكون مثل هذا الشعر الا شعرا جماهيريا تقديريا .. تتوجه كل كلمة فيه الى الاذن والقلب والعقل مجانبة كل صنوف الثورية والرمز ، والايماء .

وكل النقاد الذين يحاولون الان تسليط معايير النقد الحديث على آثار تلكم الفترة هم مشطون في نظري وهم متعسفون . ولا سك ان بعض الشعراء الذين عاصروا أحداث تلكم الفترة حاولوا ان يكبوا قصائدهم الوطنية في غير أنماط القصيدة العمودية .. شعرا منحررا ، تلبيبا للرأي القائل بان الشعر ـ مهما اختلفت اشكال كتابته ـ هو قادر اخيرا اذا ملك كاتبه ناصية الابداع ان يبلغ رسالته . وتوفيا لما ثبت الان من ان الشعر الذي سكب في قوالب تقريرية مباشرة هو شعر لا ينتمي الى هذا العصر شكلا وفحوى .

لقد شهدت الخمسينات نمطين من اشكال بناء القصيدة : النمط السالف . وكان من أبرز من عرف بالكتابه فيه (محمد زيد ، أحمد المختار الوزير ، مصطفى خريف ، الصادق مازيغ ، محمد المرزوقي ، منور صمادح ...) . والنمط الجديد الذي كتب فيه (محمد العروسي المطوي ، أحمد اللغماني ، محسن بن حميدة ..) . وقد تعايش هذان النمطان في تسامح ، وعبرا عن كل الاحداث الهامة التي كانت مدار الاهتمام في تلك الاونه . الا أن أولئك الذين أساءوا الاشكال الجديدة سرعان ما بدأ ينفرط جمعهم ، فاريد احمد اللغماني ليكتب في الشعر العمودي ، وقد وجده اكثر رحابة لاستيعاب نفثات وجدانه . ثم اصبح بعد لأي حصما ودودا لانصار الشعر الحر . وذهب محمد العروسي المطوي بعيدا لينسعل بالسياسه خارج وطنه في سفارة ، الا انه ظل على قرابة بالشعراء وبالشعر المحرر ... بالرغم من افلاله المفرط في انتاج الشعر والاستعاضة عن ذلك بكتابه القصة والاقبال على البحوث والدراسات الادبية .

اما محسن بن حميدة فهو بدون جدال شاعر خانب ، اذا قارنا ذلك بامكانياته الكبيرة في ميدان الترجمة .. نخلو اسعاره من الانارة والموهبة ، ويخذل فيها الوزن الذي يلتزمه من آن لاخر . ولعل خفوت صوته في السنوات الاخيرة من أثر اقتناعه بحدود شاعريته .

وان فشل هؤلاء الاخيرين من رواد اول حركة هدفت الى الاطاحة بالقصيدة العمودية ، يقابله بالطبع نجاح اصابته القصيدة العمودية التي عرفت ان الشعب في فورة نخوته الوطنيه بحاجه الى ازجاء القوافي الصلدة التي تلهب أكفه في مناسبات الاجتماعات العامة التي كانت القيادة السياسية تكثرمنها في بدايه حملات مواجهها للمواطنين، فكان مثل هؤلاء الشعراء لا ينخلفون عن الاجتماعات العامه والمواكب الرسمية لينشدوا شعرهم بصوت مجلجل صخاب يجيش في الصدور .. وأبرز المنشدين البارعين في هذه المحافل : (الشاذلي عطاءالله ، الناصر الصدام، محمد مزهود ، محمد الشعبوني ، وجلال النقاش..) ومن اليهم . وهم الذين اصبحوا فيما بعد عنوانا على تيار الشعر السياسي الذي تابع تسجيل الاحداث السياسية للدولة الفتية .

ـ ٣ ـ

ـ عرفت الخمسينيات اذن بانها سنوات «القصيدة العمودية».. كان هناك تيار متوافق الاصوات ، متعدد التجارب والمواهب .. ومن اهم من مثله ويمثله : مصطفى خريف ، واحمد المختار الوزير ، ومنور صمادح ..

كان مصطفى خريف يمثل في هذا التيار الرجل الذي شهد تحولات البلاد الاجتماعية والسياسية والفكرية ، وحاذى خطى رجالات القلم والسياسة أمدا من الوقت غير قليل . فأننى على بعضهم ثناء المحب المشفق ، وبكى من فقد من رفاقه .. وتاسى بما نظم في الشوق والتحنان من زمن راعب ماكر . وديوانه « الشعاع » و « شوق وذوق » هما كتاب مفتوح لسيرة حياته ، ونبل تعاطفه مع الجميع . برفع خريف في شعره عن المهاترات الشخصية .. وآمن بوحدة المغرب العربي ، وبوحدة الامة العربية على وجه العموم ، فهو يكتب في عيد تأسيس الجامعة العربية قائلا :

عيد العروبة عد فدتك دمانا ... واقبل تحيتنا ومحض هوانا
عد بالبشائر حاملا علم المنى ... طلقا طروبا ضاحكا جذلانا
عد في بلاد المشرقين أمانيا ... عد في بلاد المغربين أمانا

وفي الذكرى الثانية لعيد العروبة ، كانت نكبة فلسطين قد حلت سنة ١٩٤٨ ، واقبل العيد مربدا . ووقف الشاعر في الناس يحيي هذا العيد ، وبقايا الحرب لم تزل جراحات وجثث شهداء ، مخاطبا في وجدانه واحدة من بنات شعبه ، مثلما سلف للشاعر حافظ ابراهيم في قصته مع غادة اليابان .. لقد اتخذ الشاعر الاسلوب نفسه:

لا تلمني ان نبذت الادبا ... وتقلدت حساما أشطبا

انـــا مالي ولالحـــاظ المهـــا أنا مالـــي والتفاتـــات الظبـــا
ما الهوى ؟ تبا لاصحاب الهوى مذهب الحمقى اعتزلت المذهبا
فاغفري يا ابنة قومي سلوتـي واسالي قلبك يصدقك النبـــا

وتلمس في القصيدة اقتراب الشاعر ليهمس اليها بعاره ، يسر اليها بذات النفس ، ويحاورها باسلوب الفارس المكابر الذي لا تفل في عزيمته الهزيمة مهما اشتدت وطأتها ، فهو يعشق اذا كانت هنـاك مواسم للعشق ، ولكنه اذا نبت المرار والعلقم في الحلق ، وادلهـم الفضاء تراه وقد أمسى للدماء والثارات أشد هياما :

حدثيني ما الذي يغري العنى ان دعا في قومه : واحربـا ؟
حـل وفد واغل في حرمـــي ورعى حـول الحمى واستلبـا

وعند انقطاع حواره مع محبوبته ، يهدهد الفارس جنبات جواده، ويغيب في منتهى الطريق مرددا بينه وبين نفسه حنقا مغتاظا :

انا لا أجزع من باطلهـم ولو الدنيا استحالت نوبا
انا لو نازعني شهب السما في بلادي لاحتللت الشهبا
فاستعيريا افق نارا ودمـا وازدخر موتا وانزل عطبـا
أنا موتوروهل يغشى الكرى رجلا في عزه قـد نكبـا
كيف أغفو وجراحي جمـة ودمي من كبدي قد شخبا
ساد في قومي وحش جائع وسطا في أرض جدي الغربا

شعره القومي يتلظى سعيرا اذا كان للحرب والفداء . واذا كان للافتخار فهو انشراحة صدر وابتسامة زهو وبطولـة . والنكبـة الفلسطينية كانت من بين القضايا العربية الكبرى التي هزت المشرق والمغرب على السواء . فلا عجب ان نجد لها هذه الاستجابة الملحة في نفس خريف . وهو الذي تزخر قصائده بذكر أمجاد العرب ويحسبها فخارا له : حضارتهم ، وانتصاراتهم ، ونوابغهم ، وعلماؤهم كلهـم نسب وعترة وعشيرة .

وحفاظا على تراث العرب كان خريف الذي رأى الاستعمار يشن حملة تزييف ويسعى لاحلال لغة المستعمر مكان لغة الوطن ينبه في كـل مناسبة ، ويحذر من الاستعمار الثقافي الذي يمكن ان يحل بديلا عـن الاستعمار السياسي فعن طريق الثقافة يربط الاستعمار اولئك الذين دمغتهم افكاره بمصيره :

عرف المجرمـون مـن ايـن يؤتـى الشعب فاستنبطـوا لذاك ابكارا
بعدما استعمروا البلاد جميعـــا أنشأوا في دمائنـا استعمـارا
رصدوا للاجيال اشيـــاخ ســـوء يظهرون التثقيف فيهـم شعـارا
ياخذون الشباب فـي ميعـة العمـر ضعـافا لا يفقهـون صغـارا
يوسعـون العقـول مسخـا وتشويهـا فتنساب فـــي الضلال انحـدارا

ان الوجدان القومي العميق الذي يلمس كابرز القضايا جليا في شعر مصطفى خريف لم يات فقط من احساسه ، ونشأته ، وتأثـره بالوسط الذي خالطه ، ولكنـه انبثق عـن حس استقرائي بالتاريـخ لرجل مثقف .

وكما أسلفت فان مصطفى خريف كتب في معظم الموضوعات التي تتصل بالحياة : سياسية واجتماعية وذاتية .. ويشق علينا ان نعطـي صورة متكاملة لكل جوانب هذه الموضوعات .

وعلى نقيض مصطفى خريف نجد أحمد المختار الوزير الشاعـر المترهب الذي بدأ صلته بالصحافة الادبية في سنة ١٩٢٨ في جريدة « لسان الشعب » .. ولا يزال جذوة من النشاط ، يعزل عن الوسط الادبي ، في وحدة فرضها على نفسه . ومعظم الشباب الذين عاشوا مصطفى خريف عن كثب وجالسوه لم يتسن لهم ان يعرفوا المختـــار الوزير الا عن طريق مجلة « الفكر » التي كان يؤثرها بقصائده التـي لم تنقطع منذ الخمسينات وحتى الان .. بنفس طابع شاعرها وأسلوبه.

معظم شعر الوزير في الوطنيات و « الوجوديات » . فهو فـي الوطنيات يتحسس موضعـه فـي شعبه ، ويعبـر عـن آلامه وعـن اعياده . ويقف مع الصامدين وقفات البطولة فيؤثل المفاخر ويشيـد بالزعماء . ولكنه في تلك القصائد « الوجودية » .. الذاتية فنـان مبدع وانسان هدفه ان تسود شريعة المحبة بين الجميع :

انما الحب يا أخي ذلك الينبوع في فيضـه وفـي ارتوائـه
كم حرار من الشفاه سقاهـا وورود بعلّ من انـدائـه
وربيع مخضوضر حالـم الادواح نشوان يحتسي مـن مائـه
أنا ذاك المحب يسقي بكفيـه قساة الجفاة مـن أعدائـه
كم بصدري من الجراح لـرام وبكفـي صبابـة لارتوائـه

فاذا احب الانسان فان سخاء الارض سيزكو ، وستزدهر الطبيعة وتخضر الادواح في عالم الاحلام . رسالة الشاعر رسالة مترهب كـره البغضاء وآمن بالانسان ، فهو لا يعرف حدودا يمكن ان تقوم في وجه ابناء هذه الارض فتباعد بين عواطفهم . كل منا يحق له ان يغني في ارجاء المعمورة نشيد الاخوه التالي :

لنا الحقول المائجات والجميم الاحمد
لنا على الزيتون من اكليلـه زبرجـد
لنا الفطيع تاهت السهب به والنجد
لنا على السفوح من ناي الرعاة غرد
لنا الظلال والحيـاة مشرع ومـورد
لنا اذا الليل سجا بكل بيت موقـد

ولكن الانسان قد يغضب ، فيبتلي بغضبته .. يدمر ويسفـك الدماء ، يسلب الارض قدرتها على الاثمار ، يميت الرجاء ، يبلـغ درجة الوحشية الملعونة . وفي هذا يغني الفنان ـ في نظر الشاعر ـ عن الانسان العادي . كل الاساءات التي تنبثق عن شرور هذا العالم تستحيل في صدره الى روائع تفتح كوى من الرجاء . ومع ذلك فالفنان معرض لحالات الضعف البشري . ومن ثم فان عليـه ان يغضب ويسخط ويحزن . وفي هذه الحالة تنتابه نزوة التدمير والشر ليفرج عـن مكبوتات صدره .
فما الذي عليه ان يدمر ؟!

مزقـت اوتـاري وحطمت القيـاثـر لا اغنـي
وارقـت خمـري ما حوت كاسي وما تحويه دنـي
وطويـت اضلاعـي على شعري واسجاعي وفنـي
ومضيت في صمت اكتم في غيوب النفس لحنـي
واكفكف الدمع المغالـب فوق اشفاري وجفنـي
ابكي جراح الحـب في اللقب الصغيـر المطمئـن
لا .. لا تلمنـي ان بكيت الحـب يـالي ... لا تلمني

اما منور صمادح الذي بدأ في نشر انتاجه منـذ الاربعينات فقد كان اصغر من هذين الشاعرين ، واصغر من عددت من شعراء هـذه المرحلة . شاعر عصامي موهوب بدون شك : حياته مثل للعزيمـة والصمود ، على الرغم مما انتابه من منغصات دفعت به الى حافـة الجنون .. كان منور صمادح مع الثورة منذ بدايتهـا حتى انه كان يلقب بفتى الثورة . فاول قافية كتبها كانت تمجيدا للثورة وتبشيرا بيومها الآتي . ولكنه لم يكن ليحسن ترتيب وضعيتـه كقروي لفظتـه تخوم الجنوب الى قلب مدينة لها سننها وتقاليدها ، فاضطرب حين لـم يستطع التآلف ، ووجد نفسه اخيرا ملفوظا .

ان حلما طار من بين كفيه ، هو الذي قاد خطاه الى المهوى الذي انزلق اليه ، فاضحى تائها يسيطر عليه شعور قاهر بان يدا خفية تطارده وهي على وشك ان تمسك به .. هذا الشاعر المطارد الذي عاش منذ صباه حياة بائسة فقيرة ، فقد في بدئها السند الذي كان عليه ان ياخذ بيده ويقوده الى معاهد العلم .. وجد نفسه فجاة وهو في سن مبكرة في معمعان الصراع فركب موجة الثورة ، وحاول ان يحشد لمسيرتها المتدافعة في مطلع الخمسينات « جيش » الجياع المعذبين الذين ادمى سوط الاستعمار والمستغلين ظهورهم . كانوا اول الصور التي وقعت عيناه عليها في طريقه الى المدينة .. فرفع صوته ينشدهم .. ويسمع نداءاتهم لمن اصموا الاسماع :

باسم البطون لها نداء حائر ، فقد الجواب وما يزال سؤالا
لا باسم ابناء السعادة والنعيم ، المتخمين التائهين دلالا
باسم الجماهير التي في عزمها تدوي الحياة فتخلق الابطالا
وتشيع في الناس العدالة والاخاء ، وتعلم التاريخ والاجيالا
لا باسم افراد يمايز بعضهم ، فغدا يعيش على البلاد وبالا
عجبا يجوع بأرضنا خدامها ، كي يطعموا المحتال والمكسالا

وفي فترة وجيزة ، اصبح منور صمادح شاعر العمال والجياع بلا منازع ، فقد كانت معظم دواوينه الصغيرة التي اصدرها في مطلع الخمسينات ، وصادرت السلطات الاستعمارية بعضها تلهج بانصاف المحتاجين ، وبالتحريض على الثورة ، وبالاشادة بجهود أولئك الذين يدفعون عجلة التاريخ نحو الاستقلال الوطني ، وسرعان ما أخذت ابعاد القضية التي حملها تنفتح على العالم الاخر ، وتفقد لونها المحلي لتصبح قضية الانسان الجائع في كل مكان : ذلك الذي يزرع ولا يحصد في سهول العالم ، يتعب ولا يجني غير المرارة . فيظل ينتظر الملاك العائد مع المنتظرين من الضحايا الابرياء الذين يقفون في صف الخلاص الطويل :

كم على الارض ضحايا ،كم على الارض جناة
وبناة شردوهم يا لتشريد البناة
وسقاة حرموا الشرب فآه للسقاة
وطهاة جوّعوا اواه من جوع الطهاة
واكول بطر قد اتخمته الرقات
ويد تجني ولكن منحوها السلطات
هذه الدنيا مجال الشر مهد النزعات
وملاك العدل فيها تائه في الفلوات

ثلاث مراحل تلاحظ في شعر منور صمادح الذي ظل ينتج مدرارا .. ما جف نبع ابداعه .. وما ونى .. أو تعاسر . مرحلته الاولى هي التي كان عرضها لماما لكثرة ما انتج الشاعر خلالها . ومرحلة ثانية زخرت بما كتبه عن الاحداث الوطنية ، وبما نظمه من شعر الهيام والتشبيب حين انفرجت أزمته المادية النفسية ، واعتقد انه وضع في الركاب ساقيه . وما عتم ان عصفت الظروف بالشاعر فاصبح يلغز، وكثرت الإشارات والدلالات في شعره فكان اقرب ما يكون الى شعر المواجد ، واقرب من يكون الى المتصوفة . ورويدا رويدا يدب الصحو الى نفسه ، والبرء الى جسمه وعقله فيبارح سجف الوهم ليطل من جديد على عالم النور ، فيتبصر انه لم يفارق مواطيء قدميه منذ ان بدا اول خطواته ، فكتب رائعتيه « المناجل » ثم « المطارق » ، ليلتحم بصوته القديم الذي كان صوت الجياع والمستغلين من ابناء هذه الارض :

حتام فيها سادة وبها حشم — من سوّد البيضان في السودان
الناس قد جاءوا لبعضهم خدم — فبلا حدود عشت يا انسان
اني سفحت على السفوح الخمرا — للشعب نشرك يا دمي المسفوح
ولثمت هاتيك الورود الحمرا — في كل جرح من اخ مطروح

وفي آخر هذه المطولة الشعرية التي يشيد فيها بمجد الانسان ، وعظمة الانسان ، ويوم الانسان الذي سيطل قريبا ، نجده لا يخاطب بسطاء القوم وحدهم ، أولئك الذين نذر دمه لهم ، وانما يخاطب السادة ايضا ، فان اسماعهم المرهفة بمقدورها ان تستوعب نداءه الذي قد لا يسمعه الفلاح البائس المستلب . ان الشاعر يعتقد ان «السادة» اكثر اصغاء لكل من يخاطب « عبيدهم » . وهو في ندائه لا يطلب منة او فضلا ، ولكنه يدعوهم الى تحرير انفسهم من القيد الذي يشدهم :

سجناء خوف ايها الاسياد — تحيون ملء الشك وهو يقين
من همنا أن تكسر الاصفاد — فيفك سجان بها وسجين

تلك وجوه ثلاثة .. اصوات ثلاثة . غاب من بينها صوت الشيخ واسطة العقد مصطفى خريف بينما ما يزال الصوتان الاخران يعدان بالطريف المستعذب وهما في عنفوان الدفق ، احتفظا بالوفاء لتقاليد القصيدة العمودية ، ولم يجريا ايا من الاشكال المستحدثة ، وربما لم يفكرا في ذلك اذ لم يسمع لهما صوت فيما دار من مجادلات حول شكل القصيدة .

على ان هؤلاء الثلاثة الذين عددتهم في تيار الخمسينات يقاسمهم هذه المرحلة بضعة شعراء آخرين لم تبدأ شهرتهم على نطاق واسع بين القراء الا منذ الستينات .

ـ ٤ ـ وفي هؤلاء يعد : احمد اللغماني، ونورالدين صمود ،ومصطفى الحبيب بحري ، وجمال حمدي ، وعلي شلفوح ، وزبيدة بشير ، وجعفر ماجد ، والشاذلي زوكار ، والهادي نعمان ، وابن الواحة ، وعبد المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم ، ومحي الدين خريف ، والميداني بن صالح ، وعلي عارف ، واحمد القديدي .. وهم كل الجيل الذي يمثل الشعر التونسي الحديث ، من ملتزمين بتقاليد القصيدة العمودية الى المتحررين ، الى المزاوجين بين الشكلين في آن واحد . ومن الانصاف ان يحسب في عداد المقلعين عن الكتابة منذ حين : مصطفى بحري ، الشاذلي زوكار ، علي شلوح ، ابن الواحة ، عبد المجيد بنجدو ، وعبد العزيز قاسم .. فهؤلاء الاخيرون نادرا ما اخذوا ينشرون في السنوات الاخيرة الا اذا كانوا يدخرون ما يكتبون من قصائد . بينما فترت ايضا همة العدد الباقي من الشعراء في العامين المنصرمين ، اذ قل عدد القصائد التي ينشرونها اذا ما قورن ذلك بمعدل انتاجهم في السنوات الماضية .

ويعزى هذا الخمول الى فتور حركة النقد عندنا التي يمارسها غالبا الهواة من الكتاب الذين يستهلون خطواتهم الادبية عن طريق اسداء الثناء لهذا الشاعر او ذاك . ثم ما ان يشقوا طريقهم حتى يصبحوا من الشعراء او من القصاصين . اما النقاد الجامعيون فيترفعون عن تذوق الشعر الحديث لاسباب لها علاقة بتقاليد الجامعيين عموما . والسبب الثاني مرده تباطوء حركة النشر اذ ان الشاعر الذي يرى له ديوانا يطبع في حياته لا يجب ان يفيق من هذا الحلم على طبع مجموعة اخرى من شعره . ذلك ان الناشرين هنا يتوهمون ان الشعر غير مقروء في حين ان جلّ ما طبع من دواوين شعرية في اواخر العقد المنصرم وبداية السبعينات نفد معظمه من الاسواق .

والسبب الاخير من اسباب ازورار الشعراء عن نشر شعرهم في الايام الاخيرة ، يجاهر به الشعراء انفسهم ، فهم يأبون ان تقبر قصائدهم بجانب ما ينشر من اشعار « نثرية » تسيء في نظرهم الى حركة الشعر عموما ان لم تكن هدفها هدم الذوق العام الذي ساعدوا على تنميته بين القراء . وهذا او هي الاسباب واقلها وجاهة .

تتحدد اهتمامات هؤلاء الشعراء الذين كتبوا خلال هذه المرحلة ،

وهي مرحلة الستينيات ضمن تيارين هامين : تيار غنائي ، وتيار واقعي .. وان تداخل هذان التياران احيانا من شاعر لاخر . فليس هناك شاعر من هؤلاء لم يجرفه تيار الواقع ولم ينكفيء الى اعماق نفسه يناجيها . فعند بعضهم ، كمحي الدين خريف ، جعفر ماجد ، علي عارف ، واحمد اللغماني .. ينحد الموضوعي بالذاتي ، والواقع بالغنائية المفرطة ، فلا نبصر لك حدودا بينها .. ولكنها تقسيمات تستند الى خيط واه من الحدس .. فحسبت ان التيار الواقعي الذي دعا الى ثورة اجتماعية وأيد الاشتراكية مذهبا ، ولوحظت مظاهر تمجيد الفلاح والعامل في شعره احد وانصع اشراقا هو الذي يمثله : الميداني بن صالح ، احمد القديدي ، مصطفى بحري ، محي الدين خريف ، علي عارف .. بينما يستمد التيار الثاني معظم موضوعاته من الاحداث الشخصية . وكما قلت ايضا فهو يستمدها مرات اخرى من الاحداث الاجتماعية .

وينقسم هؤلاء ايضا الى ثلة وجدت في الشعر الحر وفي الموسيقى الجديدة للقصيدة العربية متنفسا لها ، تنفث في منفسحه ما سلف ان ساهمت القصيدة الرتيبه المتوازية المؤطرة ضمن شطرتين متوازيتين في كبته واخماده . بينما يرى انصار القصيدة العمودية ان الكتابة في الشعر الحر اشبه ان يتنفس المرء برئة واحدة .

ولأمر لا اجد له تعليلا ان الذين عاضدوا حركة الشعر المتحرر في مستهلها يقومون الان بحركة انسحاب تدريجي الى صفوف كتاب القصيدة التقليدية كما ظهر ذلك جليا في قصائد :جعفر ماجد ، ونور الدين صمود الاخيرة . يمثل التيار الغنائي كما اسلفت خمسة شعراء: احمد اللغماني ، نور الدين صمود ، جمال حمدي ، جعفر ماجد ، زبيدة بشير ، كتب جميعهم شعرا رقيقا في الحب والذكريات والليالي المنصرمة التي تركت في نفوسهم اثرا منها . وتستطيع ان تقرأ في هذه الاشعار قصة كل واحد بل أقاصيصه المختلفة منذ عرف الهوى سبيلا الى قلبه حتى اللحظة التي استحال فيها ذلك الهوى الى تنهدات وكوم من الذكريات المبددة .

تلك الايام التي جعلت احمد اللغماني ، عندما لاحت ظلال الاربعين في نفسه ، يكتب مضمار التحسر عن الشباب المضاع قائلا :

أيام كنا والشباب جناحنا ... كالطير بين خمائل وروابي
تبعاثنا تلقى على هرج الصبا ... وعلى انتفاضة عمرنا الوثاب
نمضي الى آرابنا لا ننثني ... لا شيء يرجعنا على الاعقاب
نسعى الى اللذات وهي متاحة ... سعي الفراش لنفحة الاطياب
تلك العهود ؟ فهل لديك حديثها ... هل من رجوع للصبا وايابي

وهو في هذا التحسر لا يبكي شبابه برغم شدة حنينه اليه ، وبرغم النذرات التي يظهرها لائما حسيرا . لقد كان عصي الدمع واثقا من نفسه ، لا يصغر امام هذا القاهر العنيد . احتفظ في كل شعره بطابع الاعتداد ، وبعناد سافر يابى الخضوع لتصاريف الايام :

لست ابن عشرين لكن لم يزل نضرا ... عودي ولم تبد في وجهي التجاعيد
سخرت مما بدا في الغود من وضح ... فلم يرعني انذار وتهديد
ما العمر الا الليالي المشرقات فلا ... تعد من عمري ايامي السود

واللغماني من بين شعراء العربية المعاصرين القلائل الذين يجيدون كتابة القصيدة العمومية . هو شاعر يملك موهبة البناء واللغة الشعرية والصورة . ثابر بعصامية وجلد كي يصبح الشاعر الذي يستسيغ قراءة شعره حتى أولئك الذين يناوئون البناء التقليدي للقصيدة ، وينصبون انفسهم خصوما لهذا الشعر .

وحديث الامس ، والذكريات ، والهوى يبدو الموضوع الموحد بالنسبة للشاعر نور الدين صمود الذي يدعو في احدى قصائده محبوبته أن تتركه وحيدا يعيش على التذكر بدلا من ان نعيده الى حبهما الذي انقطع بتصرف خاطيء منها :

أتركيني هنا فلن يخضع الدهر فؤادينا للغرام الكذوب
واذهبي .. اذهبي فاني خليّ .. مات في القلب كل حس حبيب
وانقضى الامس حينما كنت طيرا أتملاك وسط روض عشيب
تبعثين الحياة والفرح المعبود والدفء والرضى في القلوب

والمتملي من ديوان صمود « رحلة في العبير » يجب أن يعرف كيف يسدد خطاه ، اذا اقدم على هذه الرحلة بين تلك القصائد المضمخة بالعطور والارج المنتق ، وأكوام الورد ، وأعشاش الحمام ، وأجنحة الفراش الكثيرة الاشتهاء والتلاوين .. وبين جثث ضحايا هواه والقلوب الكليمة المعفرة في حمأة غدر عاشق مماطل ، والحبيبات اللائي ينتظرن موعدا مع غروب يوم ربيعي مشمس ، فصمود يبدو في قصائده رساما اكثر منه شاعرا . ولعل لطبيعة البلدة التي ينتمي اليها المحاطة بالخضرة والبحر والسحر من كل طرف أثر على ما يكتب ان لبعضهم الحق كل الحق في أن يصنفوه في عداد الرومنسيين الجدد الذين خلصوا الرومنسية من طابعها النحيبي .

واذا كان صمود يستمد الوان شعره ، وصوره من طبيعة الارض وفتنتها فان جعفر ماجد يأخذ من عناصر الطبيعة الهاماته الشعرية . فهو على جناح الخيال يرتاد الجزر الوهمية ، ويفترش الخيال ، ويعبيء جيوبه من النجوم . ويغوص في لجة البحر ليبحث عن صدفتين لحبيبته او ليجدف في عينين خضراوين واسعتين .

وهو في الظلماء يحلق من غير ريشة ، لتقذف به الارياح الى المهمه القفر ، فيرسي كالسندباد الضال عند كل مرفأ مهجور :

أنا في الليل افترش الخيالا ... وأغزل من أشعته ظلالا
واملأ من نجوم الافق جيبي ... وأركب عند مرفئه الهلالا
فأقلع مثل ملاح غريب ... مدى الايام يحترق الضلالا
واضرب باليدين هنا فتجري ... جواري ينحنين لي امتثالا
نحيلات كلالاً المرايا ... عواري لسن يحملن النعالا
تنفسن القرنفل والخزامى ... وقلن الشعر بالطبع ارتجالا
وافترش الشعور على ضفاف ... شربن الفل ماء حين سالا

انه خيال شاعر ولا شك .. شاعر يتوهم انه بسط سطوته على الكون ، وانه ملك الخاتم السحري فيسير الملكوت بمشيئته قادر حتى انه كان يخير حبيبته شيئا مما يعجز عن تلبيته عادة :

قولي : اريد الشمس تعبر راحتي ... تفصم من الفلك الرحيب حباله
وتحركي هذا الوجود كلعبة ... وتهن عليك بحاره وخياله
او فاطلبي ملك الفضاء وعرشه ... تتقد لحكمك شهبه وهلاله

اما زبيدة بشير فهي المرأة التي ظلت وفية لذلك الحب المخلد في شعرها .. عبرت في قصائدها عن طابع الانثى ، وجموح عاطفتها ، واخلاصها المطلق ، واذعانها للرجل المؤمل . وكتبت عن غدر الرجال، وتلونهم ، وصنوف خداعهم . وهي في كل ذلك لا تتقمص فقط مشاعر المرأة وحدها .. ولكنها تعيش تجربتها الفريدة ، وحنينها النازف من شريان الذكريات التي ابت ان تطرد ذلك الغادر المتصارم . فالقلب في نظرها ، لا يخفق الا مرة واحدة :

حبيبي اذا جاءك المفرضون
وقالوا لغيرك غنت

وقبلت كانت أحبت
فلا تلق بالا لما يدعون
فما كان يمكنني ان احب
وهل في الوجود سواك يحب .

والمأساة التي عبرت عنها زبيدة بشير لا تبلغ في عمقها عمق الجرح الذي ظل مغفورا لشاعر عانى المرارة وعاش الحزن ، وتشرب الآلام بعنف ، وحيدا مضاعا بين لداته واحبابه ، هو جمال حمدي الذي تجمعت في شعره نقمته على كل شيء ، خصوصا نقمة مدمرة على المرأة ، فقد كان لها من اللعنات ما لم يشف غليله بعد . وأنحن فيها طعنا منذ شرع يكتب الشعر في سنة ١٩٥٢ وحتى اليوم . ومن المؤسف حقا ان لا يكون لهذا الشاعر ديوان مطبوع بعد .

خيبة اثر خيبة فجر عمري ، وعذاب صباحه ومساؤه
وفراغ ايامه قد تقضت ، وبها ودع الفؤاد رجاؤه

وأنا ها هنا خيال غريب تائه اللحن في وجوم حزين
أتملى الوجود فبرا لاحلامي الحزانى وخافقي المغبون .

لا شك أن في هذه الصورة المبتورة عن تيار المنشدين ، ممن كتبوا شعرا غنائيا ذاتيا ظلما أكيدا لكل اولئك . ولكنها مجرد خطوط عامة لتيارهم ، وليست التفاصيل .

اما ابرز شعراء التيار الواقعي فهم : الميداني بن صالح ، محي الدين خريف ، علي عارف ، احمد القديدي ... تقل في شعرهم جميعا احاديث الذكريات والحب والامس ، وقصص الحبيبات ، في مقابل ما تزخر به قصائدهم من دعوات اجتماعية وشعارات سياسية ، وتعاطف مع الكثرة الممتهنة التي لا نجد لها مناصرا ، ولسانا يعبر بخلجات صدرها الذي يضيق ولا متنفس له .

فالميداني بن صالح منذ بدأ يكتب شعار الانتصار للاشتراكية ، ولم تصده تلك الحملات الادبية التي اتهمت قصائده بافتقادها الكلمة الشعرية ، واعتمادها الكلمة النثرية المبتذلة ، والوضوح المطلق بدل الايحاء الشعري ، ورأت ان الموضوعات التي كان يقع عليها متشابهة في معظمها ، مدارها العامل والمحتاج ووجوب الانتصاف لهما . ولربما زادت تلك الحملات من اصراره على النهج الذي اختطه ، اذ كان يؤمن على الدوام ان الشعر يجب ان يكون الخبز اليومي للكثرة من الناس ، وانه آن الاوان كي يغض الشعراء الغلاف السحري عن قصائدهم وكلماتهم الايحائية لينظر فيها أولئك الذين لا يقدرون على الغوص .. اولئك الذين ينهجون الحرف :

شعري لهاث الكادحين على الدروب .
شعري اهازيج الشعوب ،
من صارعوا الامواج والبحر الغضوب ،
من غالبوا الاقدار ، واقتحموا الخطوب ،
من عبّدوا الطرق المديدة في الجبال
وفي الصحاري والسهوب

ويشاركه في تعاطفه ، وفي الاهتمام بمشاكل الطبقة العامة معظم شعراء هذا الاتجاه . لكن اسلوب قصائدهم يختلف كليا عن الاسلوب الذي يكتب الميداني بن صالح فيه ، فالبافون يحاولون ، ما استطاعوا ان يرضوا الشعر بما يلائم من الكلمة المنتقاة التي تقع في القلب واحة اطمئنان ، وتبعث الراحة والدفء في الجوانح .. انهم يذهبون الى ان على الشعراء ان يكتبوا بمشاكل هؤلاء الكثرة من ابناء وطنهم ، ولكنهم يجب أن يوفوا الشعر حقه ، وأن لا يكون الموضوع ذريعة لانتهاك حرمة الشعر .. كما هو الحال في شعر محي الدين خريف الذي يؤاخي بين الموضوع وبين الفن :

انا انسان جديد
جئت كي أطعم أفواه الجياع
عدت كي أفتح عين الليل عن فجر وليد
أزرع الشمس بأيام شتائي
أعصر الافراح من قلب الشعاع
وأدك الصخر بالعزم الشديد
وأغني بشموخ وإباء :
أنا انسان جديد

هذا الانسان الجديد ، هو العامل .. وهو الفلاح ، وهو رجل الشارع البسيط الذي رآه ذات يوم علي عارف يجوب طرقات «ليون» في مغتربه الفاسي ، باحثا عن مرتزق له في بلاد نائية . باردة العواطف والمناخ :

نعم اني رأيتك في « ليون » وديعا غير ان الصدر يغلي
تجيش النفس ليلا حين تأوي وتفتقد الصفار ودفء خل
عزاؤك واغترابك ، يا صديقي، شعور مرهف في خير قول

اما الشاعر احمد القديدي ، فقد حملته الارض كنوزها وخيراتها ووعدها لذلك الغائب الذي سيأتي ذات يوم يخلص هذه الارض مما تشكوه من المظالم .. يخلص الفلاح من عوزه .. السجين من منفاه . .يحرر النفوس الحبيسة والآهة المختزنة في صدر كظيم .

الارض .. الارض التي يحبها الشاعر دوما ، ويثار لمن يجد الاهانة على اديمها بعد ان يكون قد سقاها عرقه ودمه :

حملتني الارض للغائب حبات عنب
حملتني الزيت والخبز له
حملتني بغض حب وغضب
حملتني بسمة الاطفال
اعطتني من الفلاح عزما وتعب
ايها الغائب في الصمت
كتبنا لك بالرفض الادب

ان النماذج القليلة وهذه الصورة المبسرة عن تاريخ عشرين سنة من الشعر التونسي الحديث لا تعدو ان تكون علامات .. مجرد اشارات الى ذلكم الطريق المليء بالعثرات والمغامرة والبذل ، قطعه الشعراء وهم يحاولون دون وني اووهن عزيمة ان يوصلوا هذا الحاضر المؤثل بذلك الماضي الخالد ، وان يداخل الاجيال القادمة الشعور بان لها تراثها العربي وامجادها وحضارتها ،وان بالامكان الثورةعلى هذا التراث والتمرد عليه ومحاولة اعادة صياغته . وان النكر لهضرب من الانتحار الفاجع .

كل ما كتبوه لم يكن توهم البعضسدودا وعقبات وضعت في وجه التجديد . ان هذا التاريخ على مداه كان دعوة للثورة وتمهيدا لها ، ونبوءة بها . فهل هناك من يثور ؟.

محمد صالح الجابري